مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
المجلد 150 (2): 22-44

Damascus university journal of Historical Studies
V 150 (2): 22-44

الرحالة والقنصل البريطاني جون كيرك في شرق أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

د. محمد مثكال الحجي[1]

[1] مدرس في قسم التاريخ، تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة دمشق، muhamad2.alhaji@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

هذا البحث دراسة تاريخية لدور الطبيب، والرحالة، وعالم النبات، والقنصل البريطاني جون كيرك في زنجبار خصوصاً، وشرق أفريقيا عموماً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي وصل إلى شرق أفريقيا كطبيب وعالم طبيعي مرافق لبعثة ليفنجستون؛ للكشف عن مجرى نهر الزامبيزي، ومدى صلاحيته للملاحة بين عامي 1858 –1863. ومن ثم عاد إلى زنجبار كطبيب للوكالة القنصلية البريطانية عام 1866، وترقى في مناصب الوكالة كنائب للقنصل، ومساعد للوكيل السياسي في العام 1868، ثم لمنصب القنصل والوكيل السياسي فيها بين عامي 1873 –1887. وقام خلال ذلك بدور مهم في الهيمنة البريطانية على زنجبار وشرق أفريقيا، ودافع عن حدود سلطنة زنجبار باعتبارها تحت النفوذ والحماية البريطانية، حتى انهيار هذه السياسة أمام أطماع الدول الأوروبية الأخرى لاسيما المانيا، واقتسام ممتلكاتها مع بريطانيا. وواصل اهتماماته الأفريقية رغم تقاعده من منصبه القنصلي؛ سواء من خلال شركة شرق أفريقيا الإمبراطورية البريطانية أو مؤتمر بروكسل الخاص بتجارة الرقيق عام 1890، وبقي يُعتمد على مشورته في الشؤون الأفريقية حتى وفاته في العام 1922.

تاريخ الايداع : 2025/7/6
تاريخ القبول: 2025/7/31

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب CC BY-NC-SA

الكلمات المفتاحية: القرن التاسع عشر، شرق أفريقيا، القنصلية البريطانية، جون كيرك.

British traveler and consul John Kirk in East Africa in the second half of the nineteenth century

Dr. Mohammad Mithkal Alhaji [1]

1 Lecturer in the Department of History, History of Sub-Saharan Africa, Faculty of Arts and Human Sciences, University of Damascus.
muhamad2.alhaji@damascusuniversity.edu.sy

Received: 6/7/2025
Accepted: 31/7/2025

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

Abstract:

This research is a historical study of the role of the doctor, traveler, naturalist, and British Consul John Kirk in Zanzibar in particular, and in East Africa in general, in the second half of the nineteenth century. kirk arrived in East Africa as a doctor and naturalist accompanying Livingstone's expedition to discover the course of the Zambezi River and its suitability for navigation between 1858 and 1863. He then returned to Zanzibar as a doctor to the British Consular Agency in 1866, and rose through the ranks of the Agency as Vice-Consul and Assistant Political Agent in 1868, then to the position of Consul and Political Agent there between 1873 and 1887. During this time, he played a significant role in British hegemony over Zanzibar and East Africa, and defended the borders of the Zanzibar Sultanate as a British influence and protection, until this policy collapsed in the face of the ambitions of other European powers, especially Germany, and the division of its possessions with Britain. He continued his African interests after retiring from his consular post; Whether through the British Imperial East Africa Company or the Brussels Slave Trade Conference of 1890. he remained relied upon for advice on African affairs until his death in 1922.

Keywords: 19th century, East Africa, British Consulate, John Kirk.

مقدمة:

يوصف القرن التاسع عشر عموماً بأنه قرن السيادة والاستعمار البريطاني؛ ففي هذا القرن وما سبقه توسعت بريطانيا على حساب الشعوب والبلدان الأخرى، حتى كونت أوسع إمبراطورية استعمارية بحرية عرفها التاريخ؛ إذ استطاعت أن تبسط نفوذها على مساحة تقدر بربع مساحة اليابسة، وعلى عدد من السكان يبلغ ثلث سكانها حتى ذلك الوقت، وسيطرت على معظم طرق التجارة البحرية العالمية الرئيسية، وتمتعت بسيادة بحرية مطلقة. وأصبحت الإمبراطورية البريطانية في هذا القرن القوة المهيمنة العالمية الأولى، حتى أنها وصفت بكونها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.

كانت هذه الإمبراطورية نتاج بعض الساسة والإداريين والقادة العسكريين ورجال المال والدين والرحالة والمستكشفين الذين كانوا العماد الأساسي لهذه الإمبراطورية والعقل المدبر لها، وساهموا في بناء وتوسيع الإمبراطورية البريطانية. ومن بين هؤلاء الساسة والإداريين الذين أسهموا بنصيب وافر في هندسة وبناء النفوذ الاستعماري البريطاني في شرق أفريقيا، السير جون كيرك؛ الذي تولى منصب القنصل العام البريطاني لزنجبار طوال سبعينيات وحتى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر، وكان خلال تلك المدة الطويلة السلطان الحقيقي لزنجبار وتوابعها، مستنداً إلى دعم القوة البحرية البريطانية المتواجدة في مياه زنجبار والمحيط الهندي، وبنى خلال مدة خدمته أساس متين للنفوذ البريطاني في شرق أفريقيا أمام محاولات القوى الأوروبية الأخرى لاقتطاع أجزاء من ممتلكة سلطنة زنجبار، حتى اضطر كيرك تحت ضغط السياسة الخارجية البريطانية المحابية لألمانيا إلى هدم كل ما بناه، وتهيئة الأوضاع لاقتسام ممتلكات سلطان زنجبار بين بريطانيا وألمانيا.

لا يمكن فصل حياة كيرك في هذه الحقبة عن السياسة البريطانية؛ لأن دراسة حياة وأعمال كيرك في هذه المرحلة الزمنية، إنما هو دراسة لتاريخ الإمبراطورية البريطانية في شرق أفريقيا؛ لأنه كان المحرك والمهندس الرئيسي لها في المنطقة، وبناء على ذلك تأتي هذه الورقة العلمية لتسلط الضوء على الدور الكبير الذي قام به هذا القنصل كمخطط ومنفذ للسياسة البريطانية تجاه زنجبار وعموم الشرق الأفريقي خلال مدة إقامته، ومناقشة أبرز وأهم المسائل والقضايا التي أثيرت خلال تلك المرحلة.

السير جون كيرك Sir John Kirk (1832-1922):

أولاً- نشأته:

ولد جون كيرك في آربروث (Arbroath) الواقعة على ساحل فورفارشاير (المعروفة حالياً باسم أنكوس Angus) في إسكتلندا، في 19 كانون الأول عام 1832[1]، وهو الابن الثاني من بين أربعة أطفال للقس جون كيرك. ورث عنه كيرك الأبن حبه وشغفه بعلم النبات؛ الذي كان له دور كبير في توجيه مسار حياته المهنية في مرحلة مبكرة من حياته. درس كيرك الثانوية في مدرسة أربروث، والتحق بكلية الطب بجامعة إدنبرة، وحصل على درجة الدكتوراه في العام 1854، وعلى زمالة الكلية الملكية للجراحين في إدنبرة في نفس العام، وعُيّن طبيباً مقيماً في المستشفى الملكي عام 1855. وكان خلال دراسته للطب يتابع شغفه القديم، ويحضر دروس علم النبات، وبالتالي كان تعليم كيرك مزدوجاً؛ فأصبح طبيباً مؤهلاً، وعالم نبات ماهراً في نفس الوقت. كما أهتم بفن التصوير الفوتوغرافي، وكان من أوائل الهواة الذين أتقنوا هذا الفن الجديد في العصر الفيكتوري، وكرس حياته كلها لهذا الهواية، ورافقته في رحلاته وتنقلاته حتى اضطر للتخلي عنها في أواخر حياته بسبب ضعف بصره[2].

تأثرت حياة كيرك المهنية بحدث مهم في العالم آنذاك، ألا وهو حرب القرم التي اندلعت بين روسيا والدولة العثمانية بين عامي (1853–1856)؛ حيث تطوع للخدمة في الطاقم الطبي المدني في مستشفى رينكوي (Renkioi) على الدردنيل، وكرس وقته هناك لتعلم اللغة التركية، والعادات والتقاليد الإسلامية، وقام بزيارة بروسا، وصعد على جبل أوليمبوس في بيثينيا، وعاد بمجموعة قيمة من النباتات النادرة. وكان لهذه التجربة أثر كبير في حياة كيرك، أكسبته حباً كبيراً للسفر والترحال، والاستكشاف العلمي، بعيداً عن روتين الحياة المهنية في اسكتلندا، لذلك عندما عرض عليه في خريف العام 1856 منصب مساعد طبي في رحلة إلى بلاد الشام قبل على الفور، وعمق خلالها معرفته بالأتراك والعرب والحياة الإسلامية، وجمع عينات جديدة من النباتات، وعزز مجموعته من الصور

[1] Cambridge University. (1911). The Encyclopedia Britannica. 11ed. New york. v15, p829.

[2] Coupland, R. (1928). kirk on the Zambesi. First published. Oxford University Press, Ely House, London, p48- 54. Johnston, H. (1922). Obituary: Sir John Kirk, G. C. M. G., K. C. B., F. R. S., M. D., LL. D., D. Sc., D. C. L. The Geographical Journal. V59. No3, p225. Davis, R. (2005). Encyclopedia of African history and culture. Facts On File, Inc. New York. v4, p214.

الفوتوغرافية، وعاد في ربيع العام 1857 إلى إنجلترا عن طريق نابولي وروما. وعززت تجاربه هذه من اهتمامه بعلم النبات أكثر من مهنة الطب، وكان على وشك التقدم بطلب للحصول على منصب أستاذ التاريخ الطبيعي في جامعة كوينز في كندا، عندما أوصى به السير ويليام هوكر(William Hooker) [3]، مدير حدائق كيو الملكية في إدنبرة، إلى ليفنجستون(Livingston) [4] لشغل منصب في طاقم بعثة الزامبيزي[5]. وكانت هذه البعثة هي الحدث الفارق في حياة كيرك، والتي حولت مسار حياته المهنية، وبدأ بموجبها صلته بالقارة الأفريقية التي استمرت لما يقارب النصف قرن.

ثانياً- رحلة نهر الزامبيزي 1858-1863:

كانت رحلة الزامبيزي تذكرة العبور بالنسبة لكيرك إلى القارة الأفريقية، بدأت على إثرها صلته بالقارة، التي امتدت حتى نهاية القرن التاسع عشر. فبحلول نهاية العام 1857 عرض على كيرك منصب في بعثة إلى نهر الزامبيزي تحت قيادة ليفنجستون؛ الذي كان قد عبر في رحلته الأخيرة القارة الأفريقية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي؛ بحثاً عن طريق مختصر من البحر إلى وسط القارة، واكتشف خلالها شلالات "فيكتوريا" الشهيرة على نهر زامبيزي، ونشر تفاصيل رحلاته هذه في كتاب بعنوان: "**رحلات وأبحاث تبشيرية في جنوب أفريقيا**". أثارت تفاصيلها عامة الناس في إنجلترا آنذاك، وأصبح ليفنجستون ورحلاته حديث الشارع، حيث استقبلته الجمعية الجغرافية الملكية بترحيب حار، وتدفقت عليه الدعوات العامة من جميع أنحاء البلاد، وأشار في خطاباته العامة إلى ما تزخر به بلاد الزامبيزي من مواد خام تدخل في مختلف الصناعات البريطانية؛ مما جذب انتباه رجال الأعمال، وأصحاب رؤوس الأموال إلى تلك المنطقة. وكلفته الحكومة البريطانية كنتيجة لذلك بقيادة بعثة جديدة إلى نهر الزامبيزي؛ بهدف إجراء مزيد من الفحص

[3] **ويليام هوكر (1785-1865)**: عالم نبات إنجليزي، قام بالعديد من الرحلات في البلدان الأوروبية لدراسة التاريخ الطبيعي، وخاصة علم النبات، وألف العديد من الكتب في هذا المجال. أنشأ معشبته الخاصة التي ذاع صيتها عالمياً بين علماء النبات، وتولى منصب أستاذ علم النبات في جامعة غلاسكو في العام 1820، ومنح لقب فارس هانوفر عام 1836، وعين مديراً لحدائق كيو النباتية الملكية في العام 1841، وتوسعت هذه الحدائق تحت إدارته لـ 75 فدان. وأنشأ متحف لعلم النبات الاقتصادي. وحظي علم النبات بفضل جهوده بقبول واسع في البعثات العلمية. The Encyclopedia Britannica. v13, p674

[4] **ليفنجستون (1813-1873)**: أحد أبرز المستكشفين الجغرافيين والمبشرين في القارة الأفريقية، ولد عام 1813 في اسكتلندا، ودرس الدين والطب. أمضى معظم حياته في أفريقيا، قام بعدة رحلات في جنوب القارة وشرقها؛ استكشف خلالها بحيرة نجامي، وشيرو، ونياسا وبحيرة ميرو، وبحيرة بنجويلو، بالإضافة إلى استكشافه لنهر الزامبيزي.كان من المناهضين لتجارة الرقيق، وظل مصمماً على اكتشافه لمنابع النيل حتى وفاته عام 1873 " في زامبيا الحالية". The Encyclopedia Britannica. v16, p813-816.

[5] Coupland, R. (1939). the exploitation of east Africa 1856-1890. First published. Faber and faber limited. London, p38. Coupland, kirk on the Zambesi, p57- 63. Johnston, Obituary: Sir John Kirk, p225.

لمجرى النهر، ومدى صلاحيته للملاحة، ولتعزيز التجارة والحضارة في شرق ووسط أفريقيا، وبهدف القضاء على تجارة الرقيق، والتأكد من إمكانياتها للتجارة والاستيطان البريطاني[6].

ورغم أن بعثة الزامبيزي كانت بعثة حكومية، إلا أن تنظيمها، واختيار أفرادها كان من عمل ليفنجستون أكثر منه عمل الحكومة. ويرجع اختيار كيرك كعالم نبات اقتصادي، وطبيب لهذه البعثة؛ نتيجة لمؤهلاته الطبية، وخبرته الطبية الميدانية في حرب القرم، وعمله في جمع عينات النبات في شرق البحر المتوسط؛ أي أنه أثبت نفسه في مجال أجنبي. فضلاً عن ذلك كان قد أوصى به كل من الدكتور وليام هوكر مدير حدائق كيو الملكية، والاستاذان بلفور (Balfour) وويلسون (Wilson) من جامعة إدنبرة[7]؛ أي أن رحلته إلى آسيا الصغرى كانت بمثابة بطاقة العبور، حيث وفرت له الخبرة الأجنبية اللازمة لمواصلة حياته المهنية.

استمرت البعثة قرابة ستة أعوام (1858–1863)، حيث وصلت إلى مصب نهر الزامبيزي على ساحل موزمبيق في 3 حزيران 1858، وبدأت استكشاف مجرى النهر بتاريخ 26 من الشهر ذاته، وتركزت مهمة كيرك خلالها حسب ما وضحها له ليفنجستون في الرسالة المؤرخة بـ 18 آذار 1858 "*إن الهدف الرئيسي للبعثة التي عُيّنتَ فيها عالم نبات اقتصادي وضابط طبي هو توسيع نطاق المعرفة المُكتسبة حول جغرافية شرق ووسط أفريقيا ومواردها المعدنية والزراعية، وتحسين معرفتنا بالسكان، وحثّهم على توظيف طاقاتهم في المساعي الصناعية وزراعة أراضيهم بهدف إنتاج المواد الخام التي تُصدّر إلى إنجلترا مقابل المنتجات البريطانية؛ ويُؤمَل أن يُسهم تشجيع السكان الأصليين على الانخراط في تنمية موارد بلادهم في إحراز تقدم كبير نحو القضاء على تجارة الرقيق*". هذا بالإضافة إلى اتخاذ التدابير الاحترازية لضمان صحة رفاقه في البعثة، وجمع العينات النباتية والحيوانية للمنطقة التي ستعود ملكيتها للحكومة، واستخدام مهاراته الطبية للتقرب من السكان[8].

[6] Dritsas, L. (2005). From Lake Nyassa to Philadelphia: a geography of the Zambesi Expedition 1858-64. British Journal for the History of Science. v.38, n1, p38. Coupland, kirk on the Zambesi, p66,70-73. the encyclopedia Britannica, v16, p814.

[7] Coupland, kirk on the Zambesi, p76-78. Dritsas, From Lake Nyassa to Philadelphia, P44-45.

[8] Kirk, John. (1965). The Zambesi journal and letters of Dr. John Kirk 1858-63, v2. Edinburgh, Oliver Boyd. p599-605.

كان كيرك في المرتبة الثانية في التسلسل الهرمي لقيادة البعثة بعد ليفنجستون، والعضو العلمي الأبرز في المجموعة فيما يتعلق بمجموعاتها في علم النبات والحيوان، وقائداً لكثير من مغامرات البعثة الاستكشافية الجريئة إلى جانب ليفنجستون، وبرز من بين المجموعة الصغيرة التي تألفت منها البعثة على رأس الجميع بشجاعته وصبره واستقامته وحكمته، وتعمقت صداقته بلفينجستون خلال سنوات البعثة في أفريقيا حتى أصبح أقرب أعضاءها إليه، ومساعده الرئيسي[9]، وتم تحقيق العديد من أهداف بعثة الزامبيزي بفضله. حيث أبحرت البعثة في مجرى نهر الزامبيزي مروراً بمدن شوبانجا وسينا ثم تيتي، وأمضت أواخر عام 1858 في استكشاف مجرى نهر زامبيزي حتى منحدرات كيبراباسا، التي تبين بعد فحصها ثلاث مرات أنها تشكل عقبة كبيرة أمام الملاحة في النهر. ثم توجه اهتمامهم إثر ذلك نحو نهر شاير؛ أحد روافد نهر زامبيزي[10]، وبدأوا استكشافه في مطلع كانون الثاني 1859، حتى قوبلوا بالشلالات الكبيرة– التي أطلق عليها ليفنجستون اسم شلالات مورشيسون– التي حالت أيضاً دون مواصلة الملاحة، فواصلوا رحلتهم براً عبر البلاد باتجاه الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى شواطئ بحيرة شيروا الواقعة إلى الشرق من مرتفعات شاير في 19نيسان 1859، وكانت صغيرة نسبياً، ومالحة، ولكن ازدادت أهمية اكتشافها عندما علموا من السكان الأصليين عن وجود بحيرة أخرى إلى الشمال أكبر حجماً، وتعرف باسم "نينيسي"؛ أي بحيرة النجوم، وتم لهم اكتشاف هذه البحيرة في 17 أيلول 1859. ونتيجة لما امتازت به مرتفعات شاير كبيئة صحية وخصبة تصلح لزراعة القطن وقصب السكر والأرز وخارج حدود المستعمرة البرتغالية؛ فقد وجه لفنجستون وكيرك في رسائلهم لاستيطانها، وأكدوا أن تشغيل باخرة في بحيرة نياسا لشراء العاج كفيلة بالقضاء على تجارة الرقيق في الجزء الأكبر من ساحل شرق أفريقيا من خلال قطع الإمدادات من مركزها الأساسي في الداخل، وتلبية لهذه الدعوات جاءت بعثة الجامعات المتحدة بقيادة الأسقف تشارلز ماكنزي إلى المنطقة في العام 1861، واستقرت في ماجوميرو، الواقعة على المنحدر الشرقي لسلسلة جبال زومبا. وفي غضون ذلك أمضى كيرك ولفنجستون عام 1860 في زيارة شلالات فيكتوريا ولينيانتي للوفاء بوعد ليفنجستون بإعادة

[9] Johnston, Obituary: Sir John Kirk, p225. Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p38. Johnston, H. (1886). the Kilimanjaro expedition, Kegan Paul Trench. London, p19.
[10] Coupland, kirk on the Zambesi, p119-120,127-131.

أفراد قبيلة ماكلولولو الذين رافقوه في رحلته السابقة إلى وطنهم[11]، ومن ثم عادوا إلى نهر شاير وبحيرة نياسا في أيلول 1861، وقضوا ما يقارب الشهر في استكشاف سواحل البحيرة الغربية؛ بهدف تسجيل أبعاد البحيرة، وتحديد مكانها في هيدروغرافيا المنطقة، ولكنهم اضطروا للعودة قبل وصولهم لحدودها الشمالية؛ بسبب نقص إمدادات الغذاء[12]. وكانت آخر أعمال البعثة في شرق أفريقيا هو العمل على استكشاف مجرى نهر روفوما في أيلول عام 1862 على أمل أن يكون طريقاً إلى بحيرة نياسا بدلاً عن نهر الزامبيزي؛ لتجنب الاقتراب من الأراضي البرتغالية، ولكن بعد مضي ما يقارب الشهر من محاولة الصعود أعلى النهر، تبين لهم أنه غير صالح للملاحة في جميع فصول السنة. وفي تموز من العام 1863 تم الإعلان بشكل رسمي عن استدعاء البعثة من قبل وزارة الخارجية[13].

لم تمر سنوات البعثة في أفريقيا على كيرك ورفاقه بسلاسة فقد واجهوا عقبات كبيرة تركزت حول المرض، وعدم الانسجام بين أعضاء البعثة، ومشاكل السفينة التي جلبوها معهم. فمنذ اللحظات الأولى للبعثة بدت الحياة الاجتماعية للبعثة مؤسفة، واستشرت الخلافات بين أعضاءها حتى اضطر ليفنجستون إلى فصل ثلاث منهم قبل مرور أقل من عامين على مجيء البعثة، بينما نأى كيرك بنفسه بعيداً عن هذه الخلافات منشغلاً بأبحاثه النباتية والبحث عن عيناته الطبيعية. أما الأمر الثاني فكانت مشاكل السفينة التي جلبوها معهم، والتي ضاعفت من تأخيراتهم بسبب صعوبة إبحارها في النهر، واضطرارهم لجرها، وتعطلها في معظم الأوقات، وحاجتها لنوعيات محددة من الخشب وبكميات كبيرة جداً[14]. والمشكلة الثالثة والأبرز كانت الأمراض وبالذات الحمى والملاريا، فقد ألحقت الملاريا ضرراً بالغاً بأفراد البعثة منذ البداية؛ وأدت لوفاة أحدهم عام 1861، وآخر في عام 1863، كما أودت في عام 1862 على التوالي بحياة الأسقف ماكنزي، وأحد مساعديه الشباب، وأخيراً ماري ليفنجستون التي جاءت إلى نهر زامبيزي للانضمام إلى زوجها. وواجه كيرك نفسه الموت مرتين؛ مرة بالغرق، وأخرى بالجفاف[15]. ورغم النهاية التي آلت إليها البعثة، إلّا أنها لا يمكن الحكم على

[11] Unger, F. (1909). Adventure-Travel-Exploration. George A. Parker. Philadelphia, p322-324. Brown, R. (1896). the story of Africa and its explorers. Cassell and company. London. v2, p237-239. Coupland, kirk on the Zambesi, p137-142,156,170-174,182.

[12] Coupland, kirk on the Zambesi, p204- 208. Dritsas, From Lake Nyassa to Philadelphia, P45.

[13] Coupland, kirk on the Zambesi, p240- 244.

[14] Coupland, kirk on the Zambesi, p113-116. Brown, the story of Africa, v2, p238.

[15] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p105. Coupland, kirk on the Zambesi, p276.

نتائجها بالفشل المطلق، لاسيما أنها كانت البذرة التي أنشئت من خلالها مستعمرة نياسا لاند البريطانية (دولة مالاوي الحالية) في العام 1891.

ثالثاً- حياته في زنجبار 1866-1887:

كانت حملة الزامبيزي إضافة كبيرة لرصيد خبرات كيرك وتجاربه، لاسيما في المجال الطبي؛ كونه كان طبيب البعثة الرئيسي، وزادت هذه التجارب والخبرات من فرص قبوله في أي مجال يخص القارة الأفريقية. ومن جهة أخرى تركت هذه البعثة أثراً كبيراً في نفسه، وزادت من تعلقه بالقارة أكثر فأكثر رغم ما عاناه خلال تلك المدة الطويلة من أمراض، وإرهاق شديد، وتعرضه للموت مرتين. ورغب بشدة في العودة إلى أفريقيا؛ لدرجة أنه رفض كل ما عرض عليه من وظائف خلال السنتين والنصف التي قضاها في إنجلترا بعد عودته، بينما قبل على الفور منصب طبيب الوكالة السياسية البريطانية في زنجبار الذي عرض عليه مطلع عام 1866[16]. وبقبوله هذا التعيين بدأت المرحلة المهمة من حياة كيرك في السلك القنصلي والسياسي التي استمرت ما يقارب العشرين عاماً، وغطت المرحلة الأكثر حرجاً في تاريخ التدخل الأوروبي في شرق إفريقيا، أدار ورسم خلالها السياسة البريطانية في زنجبار خصوصاً، وشرق أفريقيا عموماً، وأضحى خلالها الحاكم الفعلي للبلاد. ولأهمية هذه المرحلة، وكثرة تفاصيلها وأحداثها؛ وجب تقسيمها إلى مرحلتين:

1- المرحلة الأولى: كيرك طبيب الوكالة البريطانية ونائب القنصل 1866-1873:

كانت التعيينات القنصلية في الوكالة البريطانية في زنجبار تتم في ذلك الوقت عن طريق حكومة بومباي، بالتشاور مع وزارة الخارجية البريطانية. وبعد ترقية الدكتور سيوارد(Seward) [17] الذي كان جراحاً للوكالة إلى منصب القنصل[18] في أواخر عام 1865، أوصى

[16] Johnston, Obituary: Sir John Kirk, p226. Coupland, kirk on the Zambesi, p276-277.

[17] **جورج إدوين سيوارد (1826-1917):** تلقى تعليمه في جامعة إدنبرة، حيث تخرج بدرجة طبيب في عام 1855، ودخل الخدمة الطبية الهندية كمساعد جراح في 4 أغسطس 1855. وأصبح جراحًا في 4 أغسطس 1867، وجراحًا رئيسيًا في 1 يوليو 1873، وتقاعد بدرجة فخرية في 12 أكتوبر 1884. وباعتباره جراحًا مقيمًا في زنجبار، شهد الدكتور ليفينجستون وهو يبدأ رحلته الأخيرة إلى المناطق الداخلية من أفريقيا. توفي في هايد، جزيرة وايت، في 15 أغسطس، عن عمر يناهز 90 عاماً. Obituary Brigade-Surgeon George Edwin Seward, the British medical journal, Sept 15, I917. 2. 375.

[18] كان القنصل في زنجبار يعين رسمياً من قبل وزارة الخارجية، ولكنه كان يعمل كوكيل سياسي لحكومة بومباي أيضاً، ولهذا السبب كان اختيار من سيشغل هذا المنصب المزدوج يتم من قبل الهيئة الأخيرة. Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p39.

ليفنجستون، الذي كان في زيارة إلى بومباي آنذاك، بتعيين كيرك كجراح جديد للوكالة. ونتيجة لما اكتسبه كيرك من سمعة حسنة في بعثة الزامبيزي، تم قبول هذه التوصية، وعُين في العام 1866 بمنصب جراح الوكالة، ومن ثم وسع نطاق عمله إلى مساعد للوكيل السياسي، ونائب القنصل أيضاً[19].

انشغل كيرك في المرحلة الأولى من حياته في زنجبار بعمله كطبيب في بقعة كثرت فيها الأمراض كزنجبار، وكان مرتاديه من المبشرين، والمسؤولين ورجال الأعمال الألمان، بينما شكل الهنود الجزء الأكبر من مرضاه. فضلاً عن ذلك كان كيرك قد أتقن واجباته الرسمية، وتعرف على خبايا منصبه وبرع فيها، وتعرف خلال هذه المرحلة على جميع الشخصيات البارزة في الجزيرة، ووطد علاقته بهم. وكان إلى جانب وظائفه المعتادة يساعد الوكيل السياسي والقنصل آنذاك تشرشل (Churchill)[20] (الذي خلف سيوارد عام 1867) في كثير من أعماله؛ بسبب حالته الصحية السيئة، حتى أن الأخير كتب إلى بومباي في عام 1868، يقترح تعيين كيرك كمساعد وكيل سياسي براتب كاف؛ لتعويضه عن فقدانه لمهنته الخاصة نتيجة للعمل الإضافي الذي يقوم به. وأسهم كل ذلك في تعمق خبرة كيرك في هذا المنصب، ولأن يكون المرشح المباشر لتوليه بعد مغادرة القنصل الحالي. كما تركه تشرشل مسؤولاً عن الوكالة بالنيابة عندما أخذ إجازة مرضية في حزيران 1869، وتحمل كيرك لأكثر من عام عمل المكتب القنصلي والسياسي، دون أي مساعدة، واستمر في عمله هذا حتى بعد عودة تشرشل في آب 1870، الذي سرعان ما انهار مرة أخرى، وترك كيرك وحيداً في لحظات حرجة من تاريخ سلطنة زنجبار، بعد وفاة السلطان ماجد، وتولي برغش[21] الحكم في أواخر عام 1870. وكانت هذه في

---

[19] Orchardson, I. (1970), Sir William Mackinnon, shipowner 1823-1893, degree of Doctor of Philosophy. SOAS University of London, p114-115. Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p39-40. Johnston, H. (1899). A History of the Colonization of Africa, Cambridge University Press, p236.

[20] **هنري أدريان تشرشل (1828–1886):** رسام وإداري بريطاني. ولد في أدرنة. وتلقى تعليمه في إنجلترا وباريس. بدأ حياته المهنية في خدمة التاج من خلال اللجنة البريطانية لترسيم الحدود التركية الفارسية عام 1848، عين كقنصل في العديد من البلدان، ومن بينها زنجبار بين عامي 1867–1870، وتوفي في منصبه كقنصل في باليرمو عام 1886. The British museum, Henry A Churchill | British Museum.

[21] **برغش بن سعيد (1837–1888):** ثالث حكام زنجبار من أسرة البوسعيدي، حكم بين عامي (1870–1888). كرس جهده لتوسيع النشاط التجاري لزنجبار في البر الرئيسي لشرق أفريقيا، وساهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لزنجبار؛ بتزويدها بقناة لمياه الشرب، وتطوير وسائل النقل البخارية والتجارة وخطوط الكابلات مع العالم الخارجي. وقعت البلاد في عهده تحت ظل الأطماع الاستعمارية الأوروبية حتى قسمت مملكته في العام 1886 بين ألمانيا وبريطانيا، باستثناء جزيرتي زنجبار وبمبا اللتان سرعان ما خضعتا للحماية البريطانية عام 1890.
Ofcansky. T, yeager. R. (1997). Historical Dictionary of Tanzania. 2ed,The Scarecrow Press, Lanham, P28-29.

الواقع المرحلة الحاسمة في حياة كيرك المهنية، أثبت خلالها جدارته في المنصب الذي شغله بالوكالة، حتى تم تعيينه في النهاية وكيلاً سياسياً وقنصلاً في زنجبار على إثر وصول بعثة السير بارتل فرير (Frere) [22] إلى زنجبار عام 1873[23].

كانت أهم الأحداث الاجتماعية والاقتصادية التي عايشها كيرك في هذه المرحلة هي: هروب سالمة أخت السلطان مع هاينريش روتي أحد رجال الأعمال الألمان، بمساعدة إحدى السفن البريطانية في العام 1866، وزواجها بعد ذلك في عدن، وتعميدها باسم إيميلي روتي، ومغادرتها مع زوجها بعد ذلك إلى هامبورغ. وشاع الرعب إثر هذه الحادث بين المجتمع الأوروبي الصغير في الجزيرة؛ لما قد يسفر عن مثل هذا الحادث في مجتمع مسلم؛ حتى أن القنصل سيوارد كتب إلى حكومة بومباي، يقترح " تمركز سفينة من أسطول شرق أفريقيا في زنجبار بشكل دائم ". ولكن السلطان ماجد التزم الصمت؛ ربما لأنه أدرك عدم معرفة القنصلية البريطانية بالأمر مسبقاً أو بسبب عدم قدرته على محاسبة الفاعلين من الأوروبيين. والحدث الثاني الهام كان استدعاء كيرك في آب 1866 من قبل برغش ليشرف على معالجة اخته، ومن هذه اللحظة كانت بداية توطد العلاقة بين الرجلين اللذان كان لهما دور كبير في مستقبل زنجبار. ووجد كيرك في طلب برغش هذا خفوت حدة كراهيته للإنجليز، وبأنه أضحى أكثر وداً تجاه البريطانيين من ماجد الذي كان مريضاً بالنزيف المزمن والصرع منذ مدة، ولكنه لم يُسمح لأي طبيب أوروبي بفحصه أو رؤيته[24].

والحدث الثالث البارز هو انتشار وباء الكوليرا في منطقة شرق أفريقيا، ووصوله إلى زنجبار في تشرين الثاني من العام 1869، ووجد كيرك أن "تجنب هذا المرض أمر مستحيل"، وعمل على إزالة القذارة المتراكمة التي تساعد في انتشار المرض قدر الإمكان، ورغم ذلك انتشر الوباء بسرعة كبيرة حتى وصل عدد الوفيات في بعض الأوقات إلى 400 شخص يومياً، واضحت الجزيرة –التي قدّر عدد سكانها آنذاك بنحو 300 ألف نسمة–شبه مهجورة، وخلت الشوارع، إلّا من مواكب الدفن، وهدأ ضجيج المدينة التي كانت تنبض

[22] **هنري بارتل فرير (1815–1884):** إداري بريطاني، عين كاتب في الخدمة المدنية في بومباي عام 1834، وترقى في المناصب حتى اختير عام 1842 سكرتيراً خاصاً لحاكم بومباي، ثم مقيماً سياسياً في بلاط راجا ساتارا، وفي عام 1850 عُين رئيساً لمفوضي السند. حظيت خدماته بتقدير كامل من السلطات الهندية، ونال وسام فارس الإمبراطورية البريطانية، وأصبح عضواً في مجلس نائب الملك عام ١٨٥٩، ثم عُين حاكماً لبومباي عام ١٨٦٢. أرسلته وزارة الخارجية إلى زنجبار للتفاوض على معاهدة مع السلطان برغش؛ لقمع تجارة الرقيق عام ١٨٧٢. ثم عين مفوضاً سامياً في جنوب افريقيا في العام 1877، وكان له جهود كبيرة في مجال مكافحة تجارة الرقيق. The Encyclopedia Britannica. v11, p206

[23] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p49,57-61. Johnston, the Kilimanjaro expedition, p19-21.

[24] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p46-52.

بالحياة، وخلت العديد من المدن في البر الرئيسي من السكان تقريباً، ولم تخف شدة الوباء إلّا في تموز عام 1870. وقدر عدد الوفيات في الجزيرة ككل بحدود 30 ألفاً، وبأعداد أكبر بكثير في البر الرئيسي، وعلى طول طرق التجارة المؤدية إلى البحيرات العظمى. وكانت الخسارة المادية التي لحقت بزنجبار فادحة، فقد ظلت التجارة في حالة جمود تام طيلة موسم كامل[25]. تلا ذلك بعد عامين الإعصار الذي ضرب الجزيرة في 15 نيسان 1872، والذي أسفر عن نتائج كارثية بالممتلكات؛ حيث هدمت الرياح والسيول المنازل، واقتلعت الأشجار، ودُمر ما لا يقل عن ثلثي مزارع القرنفل وجوز الهند؛ ولأن الأشجار الجديدة لن تؤتي ثمارها، إلّا بعد سنوات عديدة، فإن الخسارة كانت غير قابلة للقياس. وعلاوة على ذلك، غرقت أو تحطمت معظم السفن الراسية في الميناء، ومن بينها نحو 150 سفينة عربية وهندية، وكانت معظمها محملة بالبضائع، ولحقت الكارثة الأكبر بأسطول السلطان الصغير؛ الذي حفظ له –رغم عدم كفاءته كأداة للحرب– ضلاً من السلطة على الموانئ والمدن الساحلية[26].

2– المرحلة الثانية: كيرك الوكيل السياسي والقنصل العام في زنجبار 1873–1887:

كما كان السير بارتل فرير هو المسؤول عن تعيين كيرك كجراح للوكالة البريطانية في زنجبار، عندما كان حاكماً على بومباي في العام 1866، كان أيضاً وراء ترقية كيرك إلى منصب القنصل والوكيل السياسي، خلال بعثته إلى زنجبار التي هدفت لإقناع سلطان زنجبار الجديد بتوقيع معاهدة جديدة لمكافحة تجارة الرقيق في سلطنته[27]، حيث كتب إلى حاكم بومباي يحثه على وضع منصب كيرك كوكيل سياسي وقنصل بالإنابة على أساس دائم دون مزيد من التأخير، وتمت الموافقة على طلب فرير، حيث نشرت الجريدة الرسمية الهندية في 18 آذار 1873، خبر تعيين كيرك وكيلاً سياسياً[28]، وتبع ذلك تعيينه قنصلًا من قبل وزارة الخارجية البريطانية كأمر طبيعي في 18 تموز[29]. صحيح أن فرير كان له دور مؤثر في ترقية كيرك هذه، لكن تعيين كيرك لم يأتي من فراغ، فقد وجد

[25] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p54-55.
[26] Munro, J. (2003). Maritime enterprise and empire sir William Mackinnon and his business network 1823-1893. 1ed. The Boydell Press, p186.Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p56-57.
[27] Munro, maritime enterprise and empire, p184. Orchardson, Sir William Mackinnon, shipowner 1823-1893, p115.
[28] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p200. يحيى، جلال. (1959). التنافس الدولي في شرق إفريقية. ط:1. دار المعرفة. القاهرة، ص79.
[29] the London gazette, Friday, august 1, 1873. Issue 24003, P3589.

منه فرير عوناً كبيراً خلال بعثته تلك، ووجده يحمل على عاتقه وحده عبئ العمل القنصلي، والقضائي، والدبلوماسي، فكان الرجل المناسب في المكان المناسب. وأكد ذلك القنصل تشرشل عند مغادرته بقوله: "*لا أستطيع أن أترك الوكالة في أيدٍ أفضل، وآمل أن تأخذ حكومة بومباي خدماته القيمة في الاعتبار عندما يحين الوقت الذي أتقدم فيه باستقالتي من منصبي. لقد اكتسب معرفة عميقة بالشعب والبلاد، ويمكنني القول دون تردد أن الحكومة لا يمكن أن تجد من هو أفضل منه لهذا المنصب*" [30].

كانت هذه المرحلة هي الأبرز من حياة كيرك في زنجبار، عاصر خلالها عهد السلطان برغش بن سعيد (1870–1888)، وأستطاع أن يكسب ثقته وصداقته، وأصبح مستشاراً ومرجعاً له في معظم الأمور، بل ومارس نفوذاً كبيراً عليه طوال فترة حكمه، وتمكن بفضل معرفته الواسعة باللغة العربية والسواحيلية، من التحدث معه دون الحاجة إلى مترجم، مما مكنه في كثير من الأحيان من جعل إرادة برغش متوافقة مع رغباته الخاصة[31].

ساهم كيرك في تعزيز وهيمنة النفوذ البريطاني في شرق أفريقيا عموماً، وزنجبار خصوصاً، كما ساعد على استقرار الوضع الاقتصادي والسياسي لزنجبار في مواجهة الضغوط المتزايدة من القوى الاستعمارية الأوروبية الأخرى، وكان خلال الجزء الأكبر من تلك المرحلة الحاكم الفعلي للبلاد، ولم يقتصر نفوذه على زنجبار فقط، بل امتد إلى أعماق القارة، حتى أن العرب الذين كانوا يقيمون في داخل القارة اعتبروه بمثابة سلطان آخر[32]، ووصف من قبل البعض: بأنه باني الإمبراطورية البريطانية في شرق أفريقيا[33]. ولم تقتصر هيمنة كيرك ونفوذه على الساحل فقط، بل امتدت في الداخل الأفريقي في ظل المراسلات واسعة النطاق مع والزعماء والملوك الأفارقة في المناطق الداخلية من شرق أفريقيا كميرامبو وموتيسا وغيرهما[34]. وتلخصت السياسة التي اتبعها كيرك في زنجبار طوال فترة إقامته

[30] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p59.

[31] Pearce, F. (1920). Zanzibar the island metropolis of eastern Africa. E. P. Dutton and company. New York, p136. Johnston, the Kilimanjaro expedition, p20.

[32] المغيري، سعيد. (2001). جُهينة الأخبار في تاريخ زنجبار. ط:4. وزارة التراث القومي والثقافة. مسقط، ص 289. درويش، فوزي. (1990). التقسيم الأوروبي لأفريقيا. دار الفكر العربي. القاهرة، ص113. playne, S, Gale, F. (1908-9). East Africa (British) Its History, People, Commerce, Industries, and Resources. The foreign and colonial compiling and publishing co., p 25.

[33] Woolf, L. (1920). Empire and commerce in Africa. The labour research department and by George Allen and Unwin. London, p234.

[34] Vidovich, C. (2009), Africa and the Africans in the nineteenth century, M.E. Sharpe, New York, p96.

بفرض الهيمنة البريطانية على شرق أفريقيا عن طريق السلطان؛ أي اتخاذ سلطان زنجبار وسيلة لتثبيت أقدام إنجلترا في شرق أفريقيا. وبناء على اقتراح كيرك، تم تعزيز قوة السلطان بجيش صغير، دربه وقاده ضابط بريطاني؛ ليخدم الأهداف والمصالح البريطانية في المنطقة[35]. وتم تعيين كيرك في العام 1875 قنصلًا في جزر القمر، بالإضافة إلى كونه قنصلاً في زنجبار[36]، وبلغ ذروة نفوذه عندما تمت ترقيته في العام 1880 إلى رتبة القنصل العام[37] مع تعيين عدة نواب له في أماكن مختلفة من أراضي السلطان؛ وذلك بهدف توسيع سلطته القنصلية إلى البر الرئيسي، حتى تقاعد من ذلك المنصب في العام 1887[38].

تدخل كيرك في كثير من القضايا السياسية في زنجبار، وكانت أولى المسائل التي انبرى لتنفيذها بعد توليه منصب القنصل البريطاني في زنجبار؛ هي مسألة إلزام السلطان برغش بتوقيع معاهدة إلغاء تجارة الرقيق في أراضي السلطنة، بعد فشل القنصل تشرشل، ومن بعده بعثة السير فرير بهذه المهمة. حيث أبدى كيرك براعة ودبلوماسية في التعامل مع برغش، ونجح في إقناعه أو بالأحرى إجباره في 5 حزيران 1873 بالتوقيع على معاهدة إلغاء التجارة التي كانت حتى إحدى الركائز الاقتصادية الأساسية لزنجبار في ذلك الوقت، وإغلاق جميع أسواق العبيد العامة في أراضيه، وذلك بعد استدعاء الأسطول البريطاني، وتهديده بحصار كامل لجزيرة زنجبار[39]. ومن جانب آخر حرص كيرك على أن يظهر التوقير للسلطان برغش، وعدم التشكيك في سيادته، بعد أن ضغط عليه لتوقيع المعاهدة[40]، ورافقه في زيارته الرسمية إلى إنجلترا في العام 1875[41]، ودفعه بعد عودته لإصدار ثلاثة مراسيم؛ أعلن بموجبها حظر جلب العبيد من الداخل الإفريقي، وحظر نقلهم على طول الساحل أو إلى الجزر، وألغى تجارة الرقيق في جميع مناطق سيطرته في

[35]Oliver, R, Atmore, A. (1994). Africa since 1800, Cambridge University Press, p100. يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقية، ص 154

[36] the London gazette, Friday, September 24, 1875. Issue 24248, P4613.

[37] the London gazette, Friday, January 30, 1880. Issue 24807, P449.

[38]Munro, J. (1987). Shipping Subsidies and Railway Guarantees William Mackinnon, Eastern Africa and the Indian Ocean 1860-93, The Journal of African History. v28, n2, p222. Johnston, A History of the Colonization of Africa, p237.

[39] هول، ريتشارد. (1999). امبراطوريات الرياح الموسمية. ط:1. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. أبو ظبي، ص612. قاسم، جمال. (2000). دولة البوسعيد في عُمان وشرق إفريقيا. مركز زايد للتراث والتاريخ. العين، ص285– 286.-1856 Coupland, the exploitation of east Africa 1890, p208-213.

[40] – هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص 630.

[41] IOR:L/P&S/9/51. No. 74. The Earl of Derby to Dr. Kirk. Foreign Office, April 19, 1875.

البنادر[42]؛ بحيث أصبحت تجارة الرقيق ملغاة في كافة الأراضي الخاضعة لسلطان زنجبار في شرق أفريقيا[43]. وبذلك نجحت إنجلترا في تحقيق أهدافها في المنطقة دون اتخاذ أي وسائل حربية، ودون أي تعقيد للمسألة بتدخل دولي أجنبي، ويرجع كل هذا إلى قوتها البحرية في المحيط الهندي من جهة، وإلى شخصية القنصل البريطاني في زنجبار، وطبيعة علاقته بالسلطان برغش من جهة أخرى. وتابعت إنجلترا تنفيذ سياستها في شرق أفريقية مستترة وراء شخصية سلطان زنجبار، وكان الأسطول البريطاني متواجد هناك دائماً؛ لقمع أي ثورات يقوم بها الأهالي ضد السلطان، وضد تغلغل النفوذ البريطاني في سواحل شرق أفريقيا.

كما سعى كيرك لتحقيق مصالح بلاده بالدرجة الأولى، وشكل خلال مدة إقامته في زنجبار عوناً كبيراً لجميع الرحالة، والمبشرين الإنجليز الذين وفدوا إلى شرق أفريقيا، كما كان حال أسلافه، فكان يستقبلهم بكل ود، ويتخذ الترتيبات اللازمة لجعل إقامتهم ممتعة، ويؤمن لهم لقاء مع السلطان، وجميع الأشخاص المهمين في الجزيرة، ويرشدهم ويقدم لهم المساعدة في تجنيد الرجال، والمشورة بشأن المؤن التي يجب شراؤها، ويدون أسماء الحمالين الذين يرافقونهم لضمان قيامهم بأداء واجباتهم وعدم فرارهم، بل كان يسعفهم أيضاً وبشكل متكرر بالإمدادات من المؤن والمواد الطبية إلى حيثما وصلوا في قلب القارة الأفريقية، والأمثلة على ذلك عديدة حيث يمكن أن نذكر تومسون، وجونستون، وكاميرون[44]، وليفنجستون أبرز مثالاً على ذلك حيث أرسل له كيرك المؤن والأدوية؛ رغم توقف حركة النقل بسبب انتشار وباء الكوليرا في العام 1870[45]. كما دعم كيرك وشجع النشاط التبشيري في أراضي زنجبار، وكان وراء تدخل برغش في العام 1875؛ لإجبار والي ممباسة، وغيره من الزعماء المسلمين المحليين، على السماح لجمعية التبشير الكنسية بإقامة مستوطنة للعبيد المحررين بالقرب من ممباسة، وتقديم كل التسهيلات اللازمة لها، والتي أُطلق عليها فيما بعد اسم مدينة فرير؛ تقديراً

[42] اصطلاح جغرافي يطلق على المنطقة الساحلية في جنوب الصومال، والتي تقع فيها العاصمة مقديشو، بما في ذلك المدن الساحلية ورشيخ، ومركا، وبراوه، وكيسمايو.

Haji Mukhtar. M (2003). Historical Dictionary of Somalia, The Scarecrow Press. Lanham, P47.

[43] McDermott, P. (1895). British east Africa or IBEA, Chapman and Hall, ld. London, P609-611. Tucker, A. (1908). eighteen years in Uganda and east Africa. Edward Arnold. London. v2, p67.

[44] Thomson, J. (1897). Joseph Thomson, African explorer, 2ed, S. Lowe, Marston and co. London, p51-52. Brown, the story of Africa, v2, p268-269.

[45]Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p119. Unger, Adventure-Travel-Exploration, p330.

لمساهمته الفعالة في مجال مكافحة تجارة الرقيق[46]. ويدل هذا الفعل على حجم الهيمنة البريطانية على زنجبار ممثلة بسلطانها برغش بن سعيد الذي خضع بشكل كامل للسياسة البريطانية، وإملاءات قنصلها السير جون كيرك، وأصبح يعتمد على بريطانيا بشكل كامل للحفاظ على حكمه.

كما اتخذ كيرك موقفاً معادياً للحملة المصرية التي استولت في العام 1875 على موانئ السلطان الشمالية: كيسمايو وبراوا على ساحل الصومال، وكانت تهدف إلى فتح طرق جديدة للتجارة بين منطقة البحيرات الكبرى والمحيط الهندي، أو بعبارة أوضح إيجاد مخرج لتجارة تلك الأقاليم على المحيط الهندي. حيث سارع كيرك لزيارة ميدان العمليات في براوا، واحتك بجنود الحامية المصرية فيها، وأرسل تقارير مطولة إلى وزارة الخارجية البريطانية؛ شرح فيها مخاطر التدخل المصري على نفوذ سلطان زنجبار، وتهديده بتفكيك أوصال السلطنة، وخضوع جزئ كبير منها للدولة المصرية، فضلاً عن تهديد مصالح الرعايا الهنود على طول الساحل، وطالب بإبعاد الخطر المصري عن هذه السواحل بأي شكل كان. ولم يقتصر كيرك على الكتابة بنفسه، بل دفع برغش للكتابة إلى الخديوي إسماعيل يطلب منه إجلاء القوات المصرية، ودفعه للكتابة إلى وزير الخارجية البريطانية يشكو من الهجوم المصري، كما استكتب التجار الهنود شكوى إلى حاكم الهند، ونتيجة لهذا الموقف الإنجليزي الرافض أُجبر إسماعيل على سحب الحملة في غضون أربعة أشهر من إرسالها[47]. ومغزى تحركات كيرك هذه؛ ليظهر أمام برغش بمظهر الحليف القوي الذي يحمي سلطنته من الأخطار، ولكن لم يكن هدفه في الواقع حماية أراضي السلطان بقدر ما كان هدفه إبعاد أي منافسة محتمله على منطقة كان يعدها ضمن مناطق النفوذ البريطانية.

كما دعم كيرك مصالح رجال المال والأعمال الإنجليز في السلطنة، وبالذات السير وليم ماكينون(Mackinnon) مؤسس شركة الملاحة الأنجلو هندية الذي كان صديقاً مقرباً له، في الحصول على دعم مالي لخط الملاحة البخارية بين عدن وزنجبار في العام

[46] Woulfin, D. (2011). Slaves, Trains, and Missionaries: British Moral Imperialism and the Development of Precolonial East Africa, 1873-1901. Doctorate of Philosophy. Stony Brook University, p70-74. Tucker, eighteen years in Uganda and east Africa, v1, p3.

[47] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p279-287. العقاد، صلاح. قاسم، جمال. (1959). زنجبار، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص167– 170.

1872 على أساس مكافحة تجارة الرقيق البحرية بين شرق إفريقيا وشبه الجزيرة العربية، وقدم له المشورة بشأن آفاق التجارة[48]، وشجعه على إنشاء طريق من دار السلام باتجاه الداخل إلى بحيرة نياسا؛ بهدف تعزيز إلغاء تجارة الرقيق، وتشجيع التجارة المشروعة، وامتد الطريق لأكثر من 70 ميلاً، ثم توقف بسبب مروره بمنطقة موبوءة بذبابة تسي تسي. كما حمل السلطان برغش في العام 1877 على تأجير كافة أراضيه في البر الإفريقي لمدة 70 عاماً للسير ماكينون مقابل مبلغ مالي زهيد، ولكن طول أمد المفاوضات، ومعارضة الحكومة البريطانية لتقديم الدعم له حال دون إتمامه[49]. وكان هدف كيرك من وراء هذا المشاريع هو ضمان بقاء منطقة شرق أفريقيا تحت النفوذ البريطاني في وقت أخذت فيه بقية الدول الأوروبية تتسابق للحصول على حصة لها من المنطقة.

ورغم ذلك عارض كيرك مشروع جونستون (Johnston)[50] بإقامة مستعمرة بريطانية في منطقة كليمنجارو في العام 1884؛ لأنه لا يتفق مع سياسته في شرق افريقيا، ولأن إنشاء مستعمرة في الداخل لا يمكن أن يتم دون الاستيلاء على أحد الموانئ الساحلية، مثل: ممباسة وتانجا، وهذا ما سيؤدي إلى تقسيم أملاك سلطان زنجبار[51]. ولكن هذا الموقف لم يمنع كيرك من الاعتراف بخطر البقاء دون عمل أمام المصالح المتزايدة للقوى الأوروبية الأخرى، وتمسك أمام هذه المصاعب بسياسته القديمة في الاستتار وراء السلطان، وتدعيم سلطته حتى يصلوا إلى إقامة النفوذ البريطاني في منطقة كلمنجارو، وحصل بالإضافة إلى ذلك على تصريح من السلطان بعدم قبول حماية أي دولة أجنبية، وألا يتنازل عن حقوقه في السيادة على أي جزء من أراضيه دون موافقة الحكومة البريطانية [52]. كما دفع برغش لتأكيد سلطته على الداخل الأفريقي؛ بإقامة عدد من المراكز، وإنشاء الحاميات على طول خط التجارة الرئيسي في

[48] Munro, maritime enterprise and empire, p184. Orchardson, Sir William Mackinnon shipowner 1823-1893, p116, 188.

[49] Keltie, J. (1910) The History of nations: Africa. The H.W. Snow and Son Company, Chicago, v19, p84. Johnston, A History of the Colonization of Africa, p237.

[50] **هاري هاملتون جونستون (1858–1927):** إداري وعالم نبات ومستكشف بريطاني، درس الرسم والعمارة واللغات. سافر على نطاق واسع في أفريقيا وتحدث العديد من اللغات الأفريقية. تولى قيادة البعثة العلمية إلى جبل كليمنجارو عام ١٨٨٤، وإدارة المحمية البريطانية في شرق نيجيريا بين عامي 1885–1887. حصل على المعاهدات التي استندت إليها بريطانيا في مطالباتها في نياسالاند وروديسيا الشمالية، وشغل منصب أول قنصل عام ومفوض بريطاني في نياسالاند بين عامي 1891–1895. وحصل على لقب فارس عام 1896. خدم لمدة عامين كقنصل عام في تونس، ثم مفوضا خاصاً في أوغندا (1899–1901). وألف العديد من الكتب عن القارة الأفريقية.The Encyclopedia Britannica. v15, p473-474

[51] يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقية، ص 156. العقاد، قاسم، زنجبار، ص189–190. Johnston, A History of the colonization of Africa, p238.

[52] يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقية، ص 160–162.

الداخل حتى تابورة[53]. ووقف في وجه أطماع القوى الأوروبية، واهتمامها المتزايد في منطقة شرق أفريقيا، وتمثلت بداية بمشاريع ملك بلجيكا ليوبولد الثاني التي سرعان ما تحولت باتجاه الكونغو، وكذلك الأمر مع المحاولات الفرنسية لاستعادة نفوذهم عن طريق طرح المشاريع الاقتصادية، وضخ رؤوس الأموال، ونصح السلطان بعدم الانجرار وراء هذه المشاريع، وما سيسفر عنها من حرمانه من موارد أراضيه[54]. ورغم كل ذلك كانت تحركات الرحالة الألمان السرية في شرق أفريقيا ممثلة بكارل بيترز ورفاقه والمعاهدات التي حصلوا عليها في أواخر عام 1884[55]، مفاجئة لكيرك، واجبرت وزارة الخارجية البريطانية على إثرها للرضوخ للمطالبات الألمانية في أراضي سلطنة زنجبار[56]؛ بسبب حاجتها للدعم الألماني آنذاك في المسالة المصرية، وغيرها من المسائل في أوروبا. واجبر كيرك استجابة لأوامر وزارة الخارجية بعد السنوات العديدة التي قضاها في تعزيز النفوذ البريطاني في زنجبار وشرق أفريقيا، أن يستخدم كل جهوده لإلغاء ما فعله، ويقنع السلطان برغش بالتنازل لألمانيا عن جزء كبير من ممتلكاته في البر الأفريقي المقابل لزنجبار[57]. وأعقب ذلك تقاسم بريطانيا وألمانيا لممتلكات السلطان في البر الأفريقي في العام 1886، حيث استولت بريطانية على المنطقة الواقعة بين نهري تانا وأومبي، التي كانت الأساس الذي قامت عليه شركة شرق إفريقيا البريطانية. واضطر كيرك بعد ذلك للتقاعد من منصبه القنصلي في عام 1887 بعد أن شهد بنفسه انهيار النظام القنصلي والنفوذ البريطاني الذي أسسه منذ العام 1873[58].

رابعاً– تقاعده وعودته لإنجلترا:

لم تنتهي علاقة كيرك بالقارة الأفريقية بعد استقالته من منصبه في السلك القنصلي، وعودته لإنجلترا في العام 1887، بل تابع اهتمامه بالقارة الأفريقية ككل، وشرق أفريقيا بشكل خاص، وواصل خدمة الإمبراطورية البريطانية، ولكن هذه المرة من بوابة شركة شرق أفريقيا

[53] Fage, J., Oliver, R. (1985). the Cambridge history of Africa, Cambridge University Press, v6, p76-77.
[54] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p329-332,339.–146 ،142–139 يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقية، ص147
[55] FO_403_93. inclosure No. 12. Ertract from the ' reichsanzeiger' of march 3, 1885.
[56] FO_403_93. No. 26. Sir J. Pauncefote to Sir J. Kirk. Foreign Office, March 31, 1885.
[57] Keltie, The History of nation, p131.
[58] Davis, Encyclopedia of African history and culture, v4, p214. Panton, K. (2015). Historical Dictionary of the British Empire. Rowman & Littlefield, London, p577. Gregory, J. (1901). The foundation of British east Africa, Horace Marshall& Son temple house, p128-129.

الإمبراطورية البريطانية؛ التي تأسست عام 1888 برئاسة ماكينون، حيث أصبح كيرك أحد أعضاء مجلس إدارتها. وكانت هذه الشركة قد حصلت من السلطان برغش قبل وفاته، على امتياز لإدارة الساحل الواقع بين نهر وانغا وكبيني لمدة 50 عاماً؛ أي في المنطقة المخصصة لبريطانيا في اتفاقية التقسم الأنجلو– ألمانية لعام 1886. وأمتد نفوذها في البر الأفريقي حتى بحيرة فكتوريا ومملكة بوجندا، ولكنها اضطرت بسبب العوائق التي تعرضت لها، للتنازل عن امتيازها في العام 1895 لصالح سلطان زنجبار الذي كان يخضع آنذاك للحماية البريطانية، مقابل 250 ألف جنيه إسترليني[59].

كما عُين كيرك في عامي 1889–1890 مبعوثاً مفوضاً في مؤتمر بروكسل الدولي لمكافحة تجارة الرقيق الذي حضره ممثلو ثمانية عشر دولة، وكان كيرك الشخصية الرائدة في المناقشات المطولة والمعقدة التي أسفرت عن توقيع قانون بروكسل عام 1890؛ الذي تعهدت بموجبه الدول الموقعة على بذل كل ما في وسعها للقضاء على تجارة الرقيق[60]. وأرسلته الحكومة البريطانية في العام 1895 في مهمة إلى النيجر، وعُين عند عودته رئيساً للّجنة التي شكلتها وزارة الخارجية لبناء سكة حديد أوغندا عام 1896، والتي أنهت عملها في العام 1901. علاوة على ذلك، كانت تُطلب مشورته بشكل غير رسمي في الشؤون الأفريقية. وفي عام 1903 عاد كيرك إلى زنجبار، وسافر على طول خط السكة الحديدية إلى بحيرة فيكتوريا، وتوقف نشاطه تقريباً في العام 1907، بسبب ضعف بصره. حصل كيرك على عدة أوسمة؛ تقديراً لجهوده وخدماته للإمبراطورية البريطانية؛ ففي العام 1878 حاز وسام القديس ميخائيل والقديس جورج **(CMG)**؛ وهو أحد أرفع الأوسمة الملكية البريطانية، ويمنح بشكل أساسي لمن يخدمون إنجلترا في بلد أجنبي كضباط الخدمة الخارجية والدبلوماسيين. وحاز في العام 1881 على لقب فارس عن أبحاثه في علم النبات، وعمله المناهض للعبودية. وحاز في العام 1882 وسام رعاة الجمعية الجغرافية الملكية؛ تقديراً لخدماته في مجال الجغرافيا، وأصبح وزيراً للخارجية فيها. وحصل على

[59]Johnston, A History of the colonization of Africa, p238. playne, gale, east Africa (British), p30. McDermott, British east Africa, P439.

[60] Coupland, the exploitation of east Africa 1856-1890, p485-486. Gjersø, J. (2015). The Scramble for East Africa British Motives Reconsidered 1884 95, The Journal of Imperial and Commonwealth History, 43:5, p843.

وسام الصليب الأعظم عام 1886، وعلى وسام الحمام (K.C.B) عام 1900؛ وهو رابع أكبر رتبة في الفروسية البريطانية. وكانت وفاته في العام 1922 عن عمر يناهز 89 عاماً، ودُفن في باحة كنيسة القديس نيكولاس في كينت في إنجلترا [61].

الخاتمة:

نستنتج مما تقدم أهمية الدور الذي قام به السير جون كيرك في شرق أفريقيا عموماً، وزنجبار خصوصاً، والذي لا يقل عن دور غيره من بناة الإمبراطورية البريطانية في القارة الأفريقية. حيث برع كيرك كطبيب، وعالم طبيعي، ورحالة، وإداري ودبلوماسي. وترك بصمته الخاصة في تاريخ شرق أفريقيا. وكان خلال السنوات التي قضاها في القارة، العقل المدبر والمخطط لمعظم الأحداث، بداية من رحلة الزامبيزي، التي برز فيها من بين جميع أفرادها، واكتسب صداقة ليفنجستون، ومهدت لتأسيس ما سيعرف بمستعمرة نياسا لاند. ولاحقاً خلال السنوات الإحدى والعشرون التي قضاها في زنجبار التي بنى فيها أساس متين للنفوذ البريطاني في شرق أفريقيا، واكتسب العرب بأسلوبه اللطيف، وهيمن على السلطان برغش نفسه، وأصبح مستشاراً ومرجعاً له، ونفذ من خلاله أهداف بريطانيا، ومصالحها في المنطقة؛ بداية من إلغاء تجارة الرقيق في أراضيه، وتعزيز التجارة البريطانية، ومساندة المبشرين، ورجال الأعمال الإنجليز، وتقديم التسهيلات لهم لتحقيق أهدافهم، ونجح على الأقل حتى عام 1885، في الحفاظ على الهيمنة البريطانية في شرق أفريقيا، والوقوف في وجه أطماع القوى الأخرى في المنطقة تحت ذريعة حماية أملاك سلطان زنجبار، ووصلت هيمنته إلى الحد الذي عده العرب في شرق أفريقيا بمثابة سلطان ثان، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى انتهى به الأمر إلى القضاء على آخر مظاهر استقلال السلطنة العربية الأفريقية، وتقسم ممتلكاتها بين الدول الأوروبية؛ بسبب اختلاف موازين القوى الدولة آنذاك. وواصل بعد تقاعده من منصبه القنصلي خدمة الإمبراطورية البريطانية من خلال شركة شرق أفريقيا الإمبراطورية البريطانية، ثم من خلال مؤتمر بروكسل الخاص بتجارة الرقيق عام 1890، وتقديم مشورته في الشؤون الأفريقية حتى أواخر حياته، ويمكن اعتباره بناء على جهوده، وأعماله خلال الأعوام الإحدى والعشرون التي قضاها في زنجبار؛ المؤسس الحقيقي للإمبراطورية البريطانية في شرق أفريقيا.

السير جون كيرك، القنصل البريطاني في زنجبار، العام 1887.

National library of Scotland, Slavery in East Africa | National Library of Scotland.

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

[61] the encyclopedia Britannica, v15, p830. Johnston, Obituary: Sir John Kirk, p228. Johnston, the Kilimanjaro expedition, p19. the London gazette, Tuesday, February 2, 1886. Issue 25555, P506.

قائمة المصادر والمراجع (References):

1- درويش، فوزي. (1990). *التقسيم الأوروبي لأفريقيا*. دار الفكر العربي. القاهرة. 279.

2- العقاد، صلاح. قاسم، جمال. (1959). زنجبار، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص234.

3- قاسم، جمال. (2000). *دولة البوسعيد في عُمان وشرق إفريقيا*. مركز زايد للتراث والتاريخ. العين. 470.

4- المغيري، سعيد. (2001). *جُهينة الأخبار في تاريخ زنجبار*. ط:4. وزارة التراث القومي والثقافة. مسقط. 589.

5- هول، ريتشارد. (1999). *امبراطوريات الرياح الموسمية*. ط:1. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. أبو ظبي. 765.

6 - يحيى، جلال. (1959). *التنافس الدولي في شرق إفريقية*. ط:1. دار المعرفة. القاهرة. 288.

7- Brown, R. (1896). *the story of Africa and its explorers*. Cassell and company. London. v2, 312.

8- Cambridge University. (1911). *The Encyclopedia Britannica*. 11ed. New York. v16. 992.

9-Coupland, R. (1928). *kirk on the Zambesi*. First published. Oxford University Press, Ely House, London. 286.

10- Coupland, R. (1939). *the exploitation of east Africa 1856-1890*. First published. Faber and faber limited. London. 507.

11- Davis, R. (2005). *Encyclopedia of African history and culture*. Facts On File, Inc. New York. v4. 471.

12- Dritsas, L. (2005). *From Lake Nyassa to Philadelphia: a geography of the Zambesi Expedition, 1858-64*. British Journal for the History of Science. V38. n1, pp 35–52.

13- Fage, J., Oliver, R. (1985). *the Cambridge history of Africa*, Cambridge University Press, v6, p891.

14- FO_403_93. in closure No. 12. Ertract from the ' reichsanzeiger' of march 3, 1885.

15- FO_403_93. No. 26. Sir J. Pauncefote to Sir J. Kirk. Foreign Office, March 31, 1885.

16- Gjersø, J. (2015). *The Scramble for East Africa British Motives Reconsidered 1884 95*, The Journal of Imperial and Commonwealth History, 43:5, pp831-860.

17- Gregory, J. (1901). *The foundation of British east Africa*, Horace Marshall& Son temple house. 271.

18-IOR: L/P&S/9/51. No. 74. The Earl of Derby to Dr. Kirk. Foreign Office, April 19, 1875.

19- Haji Mukhtar. M (2003). *Historical Dictionary of Somalia*, The Scarecrow Press. Lanham, P353.

20- Johnston, H. (1886). *the Kilimanjaro expedition*. Kegan Paul Trench. London.572.
21- Johnston, H. (1899). *A History of the Colonization of Africa*, Cambridge University Press, p319.
22- Johnston, H. (1922). *Obituary: Sir John Kirk, G. C. M. G., K. C. B., F. R. S., M. D., LL. D., D. Sc., D. C. L*. The Geographical Journal. V59. No3. pp225-228.
23-Keltie, J. (1910). *The History of nations: Africa*. The H.W. Snow and Son Company, Chicago, v19, p339.
24-Kirk, John. (1965). *The Zambesi journal and letters of Dr. John Kirk, 1858-63*, v2. Edinburgh, Oliver & Boyd.636.
25- McDermott, P. (1895). *British east Africa or IBEA*, Chapman and Hall, ld. London. 632.
26- Munro, J. (1987). *Shipping Subsidies and Railway Guarantees: William Mackinnon, Eastern Africa and the Indian Ocean, 1860–93*, The Journal of African History. v28, n2, pp 209 –230.
27- Munro, J. (2003). *Maritime enterprise and empire sir William Mackinnon and his business network 1823-1893*. 1ed. The Boydell Press. 525.
28- Obituary Brigade-Surgeon George Edwin Seward, the British medical journal, Sept 15, I917. 2. 375.
29- Ofcansky. T, yeager. R. (1997). Historical Dictionary of Tanzania. 2ed, The Scarecrow Press, Lanham, P291.
30- Oliver, R, Atmore, A. (1994). Africa since 1800, Cambridge University Press, pp405.
31- Orchardson, I. (1970), *Sir William Mackinnon, shipowner 1823-1893*, degree of Doctor of Philosophy. SOAS University of London, p400.
32- Panton, K. (2015) *Historical Dictionary of the British Empire*. Rowman & Littlefield, London, p 727.
33- Pearce, F. (1920). *Zanzibar the island metropolis of eastern Africa*. E. P. Dutton and company. New York. 431.
34- playne, S., Gale, F. (1908-9). *East Africa (British) Its History, People, Commerce, Industries, and Resources*. The foreign and colonial compiling and publishing co. 443.
35- *The British museum, Henry A Churchill | British Museum*.
36- *The London gazette*, Friday, august 1, 1873. Issue 24003, P3589.
37- *The London gazette*, Friday, September 24, 1875. Issue 24248, P4613.
38- *The London gazette*, Friday, January 30, 1880. Issue 24807, P449.
39- *The London gazette*, Tuesday, February 2, 1886. Issue 25555, P506.
40- Thomson, J. (1897). *Joseph Thomson, African explorer*, 2ed, S. Lowe, Marston and co. London, p362.
41- Tucker, A. (1908). *eighteen years in Uganda and east Africa*. Edward Arnold. London. v1:359. v2: 388.
42- Unger, F. (1909). *Adventure-Travel-Exploration*. George A. Parker. Philadelphia. 392.
43- Vidovich, C. (2009), *Africa and the Africans in the nineteenth century*, M.E. Sharpe, New York, PP312.
44- Woolf, L. (1920). *Empire and commerce in Africa*. The labour research department and by George Allen and Unwin. London. 374.
45- Woulfin, D. (2011). *Slaves, Trains, and Missionaries: British Moral Imperialism and the Development of Precolonial East Africa, 1873-1901*. Doctorate of Philosophy. History. Stony Brook University. 294.